بقلم : صوفي عبد الله

كانت عيناه الباهتتان معلقتين بيد الطبيب وهو يكتب تذكرة الدواء ، بينما كل انملة فيه ترتجف تحت وقع الحمى التي تاكل جسمه حتى احالته الى هيكل عظمي .

ماذا قال له الطبيب ؟

كيف يهمل صحتك يارجل جسده الشهور الستة ينهش فيك الحمى دون ان تعرض نفسك على طبيب ؟

عجبا ! الم يعرض نفسه على طبيب ؟

الم يقل اهل حيه ان « الدكتور علي » افضل من اى طبيب لقد عالجه بكل ذمة ولكل مرضه كان مبنوسا منه .. كل الذين عالجهم من امراض جيرته نالوا الشفاء على يديه. لم يحدث ان اخطأ الباشتمرجي علي في علاج احد ، محمد ابن بائعة الفجل .. واحسان بنت الحاج احمد ماذا من الاسراف في الطعام قبل ان يتمائلا للشفاء تماما ،وليس هذا ذنب الباشتمرجي علي ، ان امعاءهما كانت ضعيفة ـ كما قال ـ من اثر المرض مما تسبب عنه موتها .

ولكن الا يحدث ان يعالج امهر الاطباء انسانا ثم يموت ؟ هذه ترهات، والاعمار بيد الله ، ثم ان طبيبنا على قدر الحال .. بعشرة قروش يكشف ، بأقل يكشف ، والا ماذا كان في مقدور «العلاية» مثلنا ان يعملوا ؟

وراحت عيناه الخابيتان تحاولان اللحاق باصابع الطبيب

كم صنفا من الدواء كتب ؟ لقد امتلأ وجه التذكرة وهاهو يقلبها على الوجه الآخر ! الله وحده يعلم كيف جمع الجنيهين قيمة الكشف ... لعله كان يعلم لكان اقتطع من الخمسة جنيهات التي اقترضها من المعلم قرني ضعفي الجنيهين بدلا من أن يدفع احدهما «للرباتي» لعمل حجاب له والآخر يشتري طلبات الخان التي اوصوا بها الرباتي .. منذ ذلك اليوم لم تتقدم صحته .

كان يظن ان أجر الطبيب حبه .. لم يصدق سمعه حينما طلب منه الشوربجي جنيهين ولكنه دفعهما صاغرا وماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ هل يمشي ويتركه ! وحتى اذا أراد أن يمشي لن تسعفه قدماه .. فهو لا يقوى على تحرك

الوقوف .. محمد خميسى الله يستره .. احضره فى سيارة التاكسى التى يعمل عليها وتركه على أن يمر عليه بعد ساعة ليعيده الى البيت، ثم انه يريد أن يعرف مابه .. يريد أن يتأكد من العلة التى تنهش عظامه .. انه يحس بالموت يدنو منه يوما بعد يوم .. من يرعى اطفاله الستة وامهم لا تحسن عملا ؟ .. من يعولهم ؟ ابراهيم اكبرهم لم يبلغ التاسعة بعد .. بينما مصطفى لم يزل رضيعا .

مصطفى هذا أس البلاء ، مقد ولادته ركبته الامراض لايفيق من بلوى حتى تعقبها أخرى .. كل شىء كان يهون فى نظره الى أن أفقده هذا المرض اللعين ، وهد كيانه واسلمه للفراش ! لكم قاوم ولكنه تغلب عليه أخيرا . ولو انه من أول الامر ذهب الى أحد الاطباء المشهورين ، ربما لم يكن الداء قد استفحل معه على هذه الصورة .

ماذا قال له الطبيب .

ان العلاج الذى كنت تستعمله علاج الانفلوترا ، بينما أنت مصاب بالملاريا من الذى شخص لك هذا التشخيص الخطأ ؟

أيستطيع ان يقول له ان الباشمرحى على هو الذى كان يعالجه ، وعالجه ايضا على اساس ان مابه ضربة شمس ، ثم قيلت بانفلوترا حادة ؟.

الله يسامحك يادكتور على .. خربت بيتى .

فى الصباح حينما حضر محمد خميسى ليصحبه الى الطبيب قالت له زوجته :

ـ ليس فى البيت مليم واحد ، ولا كسرة خبز ، ونعم متبولى البقال وعض أمس أن يعطينى خبزا وحلاوة على الحساب قال بصوته الجهورى حينما استطعته ان ينتظر لاول الشهر « لاياست ام ابراهيم » مطلبا شكك» عوضنا على الله فيما فات

ثم غضت .

ـ كان الاولاد سينامون بدون عشاء ، على لحم بطونهم لولا ـ الله يسترها ـ أم محمد حارتنا ارسلت لهم طبق بليلة حينما سمعت بكاءهم .

وماذا فى وسعه ان يفعل ؟ هل سيقطع نصيبه ؟ انه لايستطيع العمل .. حتى القروش التى كان ياخذها من عمله المنهك كان يحمد الله عليها مع انصحة .. ولكن راحت الصحة وراحت معها النقود ! .. ترى ماذا حدث للطلب الذى قدمه للعمل فى السد العالى ؟ هل سيكتب له القبول أم سيرمى فى سلة المهملات كما حدث لطلبات كثيرة اخرى قدمها لهيئات ومؤسسات عديدة فلا يجد لها صدى لسبب لا يدريه .. لن ينتشله من أزمته الا أن يفتح الله عليه بقبول طلبه هذه المرة .

لديه احساس أن شفاءه سيأتى على يدى هذا الطبيب .. صحيح ان كشفه «حرااق» ولكن لاباس بمحاولة ما انفق ما وام سيعيد اليه صحته .

ياسلام .. لاتوجد فى الدنيا انس من الصحة .. حينما كان بصحته لم يكن يقلقه شىء .. كان يعمل طوال النهار لا يحس كللا، كان ياكل الفول والبصل وقديد الخمر .. كانت معدته تهضم الرطل .. لم يرقد يوما فى فراشه .. كان يضحك من الشبان الذين يمرضون

كان يرقد في العراء ، لا يردا يحس ولا شمسا يتعاشى .. ماذا أصابه ؟

الله ـ يسامحك يادكتور علي .. خرجت بيتي .

لو لم يسمع كلامه .. لو لم يذهب اليه برجليه .. كان صداعا بسيطا الذي احسه .. محمد حبيبي هو الذي دفعه دفعا الى الذهاب .

ـ تعال ياشيخ ، ده الباشا شمرخي على افضل من الف طبيب لم يجب علاجه مره .. تعال ولو من باب الاستئناس برأيه اذا لم يعجبك كلامه لاتستعمل علاجه .. والمسألة كلها لن تكلفك أكثر من عشرة قروش كشف . افرض انك اشتريت بهم حلوى لمصطفى .. ودواؤه من أرخص ما يكون .

الله ـ يسامحك ياباشمرخي علي .

خرجت بيتي .

خرجت من عنده لاادري برأسي ان رجلي .

ـ ضربة الشمس قوية يارجل اذا لم عالجها ستقلب بحمى .. لا تستهن بضربة الشمس فهي أخطر من الامراض المستعصية للذين يهملونها !! اشتر هذه الاقراص والحقن ولا تترك فراشك حتى الصباح .. لاتنزل شيء معدتك .. ساعطيك الآن حقنة ، وفي الصباح باذن الله سامر عليك قبل ذهابي الى العيادة ، واعطيك الحقنة الثانية واقرر ان كانت حالتك تسمح بذهابك لعملك .. ولو انني أفضل ان تستريح في البيت يومين على الاقل حتى تشفى تماما .

ـ الله يسامحك يادكتور علي .. خرجت بيتي .

خرجت من عنده لاادري الطريق أمامي .. احسست أن أمراض العالم قد اصابتني .. لم أشعر في حياتي بما

... به هذه الليلة ... فستجربه ، وبرودة يهتز لها جسمي ويهتز معه السرير «كالزيوج» ولا ينفع معهما البطانية واللحاف ولا أم ابراهيم وهي تجلس فوقهما لتمنع جسمي من الارتجاف كان عفريتا قد لبسه .. ثم سخونة فظيعة أحس معها نارا تصعد من جسمي ورأسي ولا أطيق حتى ملابسي حولي . فأدفع أم ابراهيم والأغطية معها وأحاول أن أتخلص من ملابسي وأصرخ أن تفتشي عما منتج .. الا أن الفشجرية تدهشني مرة ثانية فأصرخ أن تسرع بتغطيتي .

وهكذا حتى طلع النهار وأنا غير مصدق أنني على قيد الحياة .

الله يسامحك يادكتور لي .. خربت بيتي .

ظل يعالجني وكل يوم أصبح في حال .. لم تصلح صحتي منه أن وطئت قدماي أرض بيته .. ستة اشهر زرت خلالها الشيخ مرزوق والشيخة هلال والشيخ احمد ابو كيفه والاولياء والاضرحة .. لم تسمع أم ابراهيم على أحد الا واخذتني اليه واستنزفت كل ماملي .. ومددت يدي للقريب والصديق أنا الذي كان أعز على أن أدفن قبل أن أمد يدي لانسان .. ماذا افعل ... المرض مر والحاجة أمر منه .

واخيرا أتاني محمد حبيبي أيضا بعرض على أن يأخذني الى هذا الطبيب .. سد أذنه عن توسلاتي أن يتركني لأموت وكفى ما تركته لأولادي من الديون والله أعلم ماذا سيحدث لهم بعدي .. ولكنه استطاع ان يؤثر على أخيرا .

على الله بعد البركة واشفاء على يدي هذا الطبيب ، يظهر عليه أنه ابن حلال ، شاطر .. هل سيكتب لي أن اشفى واعمل عرس السيد واسيد دنيتي ؟ .

هامش تذكرة الدواء : يجب أن تواظب على كل دواء في موعده . اياك أن تهمل اذا كنت تريد أن تسترد صحتك وعافيتك .

ورفع عينيه الكليلتين الى الطبيب ، وقال بصوت واهن على قدر ما اسعفته حنجرته :

ـ الله يخليك ويعمر بيتك ، ولا يحرمك من صحتك أبدا .

ودون ان ينظر اليه الطبيب قال وهو يضغط على الجرس

ـ اياك ان تهمل .. الامراض منتشرة هذه الايام ، انوباء يحصد الناس حصدا .

ومد يده يتناول التذكرة من يد الطبيب ولاول مرة ينظر في عينيه فاذا وميض السرور يلمع في اعماقهما .

ـ اوبئة ؟ .. ياستار يارب .

فاجأه الطبيب وهو يتطلع الى عينيه بعينين لامعتين من غير أن يراه ، ويده على الجرس ايذانا للممرض أن يدخل ، الزبون ، التالي .

ـ اشكال والوان .

وتوقف الطبيب لحظة .. لحظه صغيرة جدا ، ثم استطرد بحرارة كأنه يحدث نفسه .

ـ الحمد لله ،